

مفهوم اللغة عند ابن جني

م.د. عبد الجبار عبد الأمير هادي

كلية التربية / ميسان

لا يخفى لقر ابن جني (ت ٣٩٦ هـ) في الدراسات النحوية الحديثة بخاصة^(١)، مما تركه هذا المؤوي من مصنفات تشهد له بالسبق والابتكار في مجالات الدرس النحوي وتفصح عن خدسته المقلصة للعربية والناطقين بها على مرور الأزمنة. ومصنفات هذا الرجل كثيرة متنوعة غير أن منها ما هو أكثر إزاحة من سواء وأشد انصافاً بما نحن في صدد، من نحو: سر صناعة الإعراب الذي صنّفه في أصوات العربية مجردة من الخاليف والتركيب، فهو دراسة لأصوات العربية في أنفسها. وكتاب المحاسب الذي أودع فيه شواذ القراءات ويدان أوجهها في العربية مع لمحات لطيفة في قيمة الأصوات ومسايل أخرى لا غنى للباحث عنها. وكتاب الخصائص الذي صنّفه للوقوف على أوضاع العربية وقوانينها وسننها وأحكامها في تركيبها العام. والحق إن هذا الكتاب ((لوقي كتاب نعرفه يتناول المنهج العلم لدرس اللغة.. هو كتاب يعرض للأصول العامة للدرس اللغوي في العربية))^(٢) إذ هو كما يقول صاحبه: ((مبنى على إثارة معائن المعاني وتقرير حال الأوضاع والمبادئ، وكيف سرت أحكامها في الأبناء والحواشي))^(٣).

تلك الأوضاع والمبادئ هي نظام اللغة. كيفما كانت وحيثما وجدت، وهي الأصول والمقاييس التي يدرج عليها أبناء اللغة الواحدة ليتحقق ذلك النظام.

وقد أوضح ابن جني تلك الأوضاع وقرر أصولها في ضوء دراسته للغة العربية بكونها نظاماً لغوياً خاصاً له طبيعته المتميزة، دون أن يغفل حائفة من الأوضاع الخاصة بلغات أخرى، وإذا كان حديثه هذا إشارات عبيرة مقصودة، فلها لا تثار من فائدة.

وما دام غرض (الخصائص)^(٤)، إنما هو تقرير حال أوضاع اللغة العربية ومبادئها، إلا أن ما يلتفت النظر فيه هو أننا - نقتل لأول مرة على تصور عالم لغوي عربي مثل ابن جني، لغة وتعاريفها، إذ

(١) في لغة اللغة في الكتب العربية. د. عبيد الزاجحي ودراسات في لغة اللغة لمصطفى الصالح وانظر الدراسات النحوية والصوتية عند ابن جني للدكتور حماد النعيمي وشيرها.

(٢) لغة اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٩، ص ١٩٠.

(٣) الخصائص: تحقيق محمد علي الجار، دار الكتب، القاهرة ١٩٥٢ / ١ / ٣٢. والاحتماء: أطراف الشيء وأواحيه.

(٤) لا يعني هذا إغفال المصنفات الأخرى، غير أن لخصائص أهمية خاصة عليها في اشتغال علمي حد اللغة فضلاً عن احتوائه المزايا التالية ذكرها.

ليس بين أيدينا نص قديم قبل هذا العالم الجليل ، يحصر ماهية اللغة ويحدد عناصرها وطبيعتها ، لذا فن ما ورد في الخصائص في هذا الشأن هو أقدم ما وصل إلينا ، كما نظن .

والنظر في مفهوم اللغة عند النحاة العرب والنحويين السابقين على ابن جني ، يدل على أنه كان يتضمن دلالات متنوعة ، فالنحاة يستعملون كلمة (لغة) مرادفاً بها لهجة مفصولة دون سواها : كما أوضح في نحو : لغة الحجاز . ولغة قمم ولغة طي وغيرها .

قال سيبويه : ((وتقول : إذا كان غداً فأتني .. فالفعل بعد .. وإن شئت قلت : إذا كان غداً فأتني ، وهي لغة بين نعيم)) (٥) وربما أريد بها ظاهرة لغوية تنسب إلى هذه البرية أو تلك ، ولغة (أكلوني الرباعيث) مشهورة في كتب النحو وبخاصة ، وهي ظاهرة تقتضي انطباقاً في العدد بين الفعل والفاعل في التركيب ، وقد عزيت هذه الظاهرة إلى قبيلة طي ، كما ((حكيت لنا هذه اللغة كذلك من قبيلة ياحارت بم كعب وقبيلة أزد شجرة ومما من القبائل التي تمت لأصل قبيلة طي بصفة)) (٦) .

واستعمل سيبويه عبارة (اللغة) في بعض السياقات ليدل بها على المستوى الأفصح في الكلام ، قال في باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا : ((ودعاهم سكون الآخر في المثلين أن بين أهل الحجاز في انجزم (الأمر) فقالوا : أريد ولا تردد وهي اللغة العربية القديمة الجيدة ..)) (٧)

والظاهر أن النحاة - ولا أشك أنهم يجهلون مفهوم اللغة بمعناها العام - لم يكونوا معنيين بوضع حد للغة وتعريفها ، إنما كانوا معنيين بـ (الكلام) وحده وتبيان عناصره وأحكامه (٨) .

أما النحويين ، فإننا نجد أن مصطلح اللغة لديهم ذو مفهوم خاص ، إذ كان يُراد به الصناعة الكاملة في تنوع الكلام في العربية ، شاردها وغريبها وندرها ودخيلها ، وشيرها مما استعملته العرب ونطقت بها ، من هنا كانت عبارة (اللغة) علماً ، وهو ((العلم الذي يختص بجمع الألفاظ اللغوية ودراساتها)) (٩) .

(٥) الكتاب : (ضء هزون) الخالجي ، ١٩٨٢ - ١ / ٢٢٤ .

(٦) بحوث ومقالات في اللغة : د . رمضان عبد التواب ، الخالجي ١٩٨٨ : ص ٢٥٢ .

(٧) الكتاب : ٤ / ١٧٣ .

(٨) أنظر : خواطر هيكالية في AS ، سيبويه ، عرو ومفصل ، النونية القومية ١٨ / ١٩٨٠ ، ص ٢٦٦ .

(٩) لغة اللغة في الكتب العربية ، ص ٣٧ .

على أننا وجدنا لديهم كذلك عبارة (لمن) أو (اللسان) وإنما كانت قد اختلفت اللغة في مفهومها العام ، قال أبو عمرو الأشجيني : لكل قوم لمن ، أي لغة يتكلمون بها ^(١٠) .

وعلى ذلك قوله تعالى ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)) ^(١١) أي بلغة قومه ((لأن مدار الأمر على الإفهام والتفهم)) ^(١٢) .

وقال الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) : ((إن نكل قوم لغة يتكلمون بها)) ^(١٣) وهذا القول لا يشتمل على حد اللغة.

ولعلنا لا نبالغ إذا رعبنا أن ابن جني هو أول اللغويين الذين منحوا مصطلح اللغة مفهومها العام في ما رسمه من حد لها ، كما سنرى ^(١٤) .

من هذا كانت محاولتي هذه لاستكشاف العناصر التي تضمنها حد ابن جني للغة ، مهيأ بعد كل عنصر دون أن أدخل في النص ما ليس منه ، أو أحمله ما ليس يحتمله ، لعلمي أن ابن جني لم يشأ ولم يقصد إرضاء ، وبعد ذلك كله خلصت إلى نتيجة هذه المحاضرة المتواضعة ، وهي تأتي في موضعها إن شاء الله .

يقول ابن جني في باب القول على اللغة وما هي : ((أما حدّها ذاتها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)) ^(١٥) . وهذا التعريف كما يرى بعض الدارسين ((يتضمن العناصر الأساسية لتعريف اللغة ويتفق مع كثير من التعريفات الحديثة للغة)) ^(١٦) .

والقول أن اللغة أصوات ، إنما يؤكد الجانب المحسوس الذي تتألف منه اللغة وهو جانب مركب بوجده (المتكلم) ويستقبله (السامع) في الغائب .

^(١٠) الإيضاح في علل النحر : الزجاجي ، تحقيق د. ملزوم المبارك ، بيروت ط ٢ - ١٩٧٣ ، ص ٩١ .

^(١١) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

^(١٢) البيان والتبيين : الجليلي ، (تح. هارون) الخانجي ١٩٧٥ / ١ / ١١ .

^(١٣) الإيضاح في علل النحر ، ص ١٩ .

^(١٤) والحد الذي رسمه ابن جني سنجدته كذلك عند عدد من اللامعين من علماء العربية .

^(١٥) مدخل إلى علم اللغة د. محسود حجازي ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ١٠ . وقارن : فقه اللغة في القتب العربية ، ص ٦٠ .

^(١٦) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

والمراد بالأصوات هنا : العملية الكلامية الحادثة بين المخاطب والمخاطب بفض النظر مع ماهية هذه الأصوات ومصلداً لنقلها ، لأنها حسب التعريف ذات صلة وثيقة بـ (التعبير) الكامن في النواحيات الصوتية التي تتألف منها الألفاظ والمباني المركبة وقيمتها .

والحق إن كون اللغة (أصواتاً) ليس بالشيء انشعب عند ابن جني ، إذ هو أمر نجده عند من سبقه من علماء العربية على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ، فقد قال سيوريه وهو يعنى اللغة العربية : ((هذا باب عند الحروف العربية ، ومخارجها فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً)) (١٧) أي صوتاً .

والجاءت كلام قيم في أن اللغة - وسماها الكلام (١٨) - مؤلفة من أصوات : قال : ((ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً .. إلا بظهور الحسوت ، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتطبيع والتأليف)) (١٩) وقد قرر بعد أن ((لكل لغة حروفاً في أكثر كلامها)) (٢٠)

وإذا كان لكل لغة أصوات في أكثر كلامها ((وكانت الأصوات تمثل القدر المشترك بين جميع اللغات الإنسانية)) (٢١) فلا شك في أن لكل لغة معجمها الذي يتركب جماع أصول أصواتها ، قال ابن جني في حروف المعجم العربية ((أعلم أن أصول حروف المعجم عدد الكفاة تسعة وعشرون حرفاً ، فأولها الألف وآخرها الياء على المشهور ... جميع هذه الحروف إنما وجب إثباتها واعتدادها لما كانت موجودة في اللفظ ...)) (٢٢) . وإثبات هذه الأصوات واعتدادها له أثره النفسى في تكوين عادات متشابهة في النطق لدى أفراد اللغة الواحدة ، هذه العادات المتماثلة هي التي توجد اللغة (٢٣) ، وهي التي تجعل أفراد البيئة الواحدة يحدرون الفارق بين ما ألفوه من أصوات وبين ما يطرأ على ما اعتادوه من أنماط صوتية . ويبدو أن اللغويين العرب قد قطنوا لبعض الأصوات التي فارقت مخرج الفصحاء ، فاختلقت صورها النطقية عما نرجوا عليه من تصور مألوذة ، لذلك عدوها غير مستحسنة ومرذولة ، فكثرت صور عارضة ودخيلة على اللسان العربي ، قال ابن جني ، ((وقد تحقق (بالأصول) .. ثمانية

(١٧) الكتاب ٤ / ٤٣١ .

(١٨) هذا متواتر مشهور عند علماء العربية ، (قال الزجاني : الإيضاح ، ص ٤٨ : الاسم في كلام العرب ما كان له علماً ..) وعلمه كثير .

(١٩) الأبرار والاتبين : ١ / ٧٩ .

(٢٠) ن . م . ١ / ٦٤ ، ٦٥ .

(٢١) في علم اللغة العام نر عبد الصبور شاهين ، بيروت ، ط ١٩٨٨ ، ص ٢٧ .

(٢٢) من صناعة الإعراب ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، القاهرة ١٩٥٤ ، ١ / ٤٦ - ٤٨ .

(٢٣) أنظر : علم اللسان ، أنطون مابيه (مترجم : النقد المنهجي عند العرب) د. محمد مندور : القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٤٥٦ .

أحرف (أصوات) وهي فروع غير مستحسنة ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مردولة وغير متقبلة)) (24) وعدم الأخذ بهذه الفروع ، وعدم استحسانها ، إنما يرجع إلى التقاليد السماع والمشافهة في الكلام ، ولعل هذه الأصوات دخلت اللسان العربي عن طريق الاختلاط ، وربما كان بعضها شامعا على لسان الموالي ، ولم تتمكن من اللسان العربي ، لذا عدت ضعيفة ومردولة ، قال الجاحظ ((وقد يتكلم السلتاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيرا ... ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه بيطي)) (25) وقال في أبي مسلم الخرساني ((وكان إذا أراد أن يقول : قلت لك : قلت)) (26) يعني أنه ينطق حيفا قاهرية وهذا الصوت مما ألفه العجم . ومن الأصوات التي ألفوها دون العرب الفصحاء الباء التي كالفاء وهي ((ما يسمونه الباء الفارسية .. مثل صوت (P) .. والمعروف أن العرب كانوا يعربون هذه الباء بقلبها فاء)) (27)

وإذا كانت العادات النطقية هي التي تميز قوماً عن قوم فإن ذلك يعني أن لكل قوم نظامهم الصوتي الذي تواضعوا عليه ، وهذا يقتضي أن تكون الأصوات ذات قيم ومقاصد مشتركة بين أفراد البيئة اللغوية الواحدة ، فالأصوات هنا في الواقع ((رموز اصطلاح على أشكالها وكيفياتها وكمياتها بالقدر الذي تسمح به اللغة المعينة ، كما اصطلاح على الدلالة التي ترتبط بكل مجموعة من الأصوات)) (28) وهنا يتضح دور (القوم) أو المجتمع اللغوي في إيجاد نظام صوتي يخضع له أفرادهم في ملوكهم الكلامي . ومن شأن هذا النظام ، كذلك أن يحقق مبدأ الفهم المشترك الذي يقتضيه اتصال بعضهم ببعض ، فاللغة في ضوء هذا الجانب نظام متقيد إليه ((وقواعد مقررة .. ولولا هذا النظام لما تحقق لها من هدف وقد اتضح هذا النظام اللغوي في أكثر اللغات بدائية - وفي البيئات التي لم يتح لها أي نصيب من الحضارة)) (29) .

وما دام لكل لغة نظامها الذي يحدد مستوياتها المختلفة ، فلا شك في أن لكل قوم نظامه اللغوي الذي تواصوا عليه ، وأحسب أن ابن جني قد أكد هذه الحقيقة اللغوية التي تكمن في اختلاف الرموز الصوتية وهيئاتها من لغة إلى أخرى بله اختلاف صورتها ، يقول : ((ومن هذا الذي في الأصوات ما يعطاه الناس الآن من مخالفة الأشكال في

(24) مر صناعة الإعراب ١ / ٥١ ومن هذه الأصوات الجيم التي كالف (للجيم القاهرية) والباء التي كالفاء (الباء الفارسية) وغيرها .

(25) البيان والتبيين : ١ / ٦٦ .

(26) ن . م ١ / ٧٣ .

(27) اللغوي العربية معانها ومعناها د . تمام حسان ، مصر ١٩٧٣ ، ص ٦٠ .

(28) في علم اللغة العام ، ص ١٦٥ .

(29) اللغة بين القومية والعالمية ، د . إبراهيم أنيس ، مصر ١٩٧٠ ، ص ١١ .

حروف المعجم .. وعلى ذلك اختلفت أقلام ذوي اللغات كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على مذاهبهم في المواصفات ((³⁰)).

يعني أن هذه ((إنما وجب إثباتها واعتدادها (في الخط) لما كانت موجودة في اللفظ الذي هو قبل الخط .. والخط فرع على اللفظ)) (³¹).

وإذا كان لكل لغة أصواتها وعاداتها النطقية ، فإن الأصوات أنفسها يجب أن تكون ذات دلالات مفهومة من قبل أبناء اللغة الواحدة ، وهذا السلوك النفسي للغة يعكس أثر المجتمع اللغوي في مبادأة نظامه اللغوي ، والمجتمع إنما يراعي رموزه الصوتية وسماتجه اللغوية التي اصطلاح عليها في الاستعمال الفعلي للغة ، فليس تلفظ أن يستعمل غير ما درج عليه المجتمع الذي ينتمي إليه وليس له أن يغير عن غير ما ارتبط به في جماعته ونظامها العام .

وفي هذا نلمس العنصر الاجتماعي للنظام الصوتي وهو ما يقرره النظم اللغوي الحديث ، ذلك أننا ((حين نسمع أنما يتكلمون لغة لا نفهمها فأننا نسمع الأصوات ولكنها تبقى خارج العنصر الاجتماعي لأننا لا نفهم هؤلاء الناس)) (³²) ولعل ابن جني لم تغيب عن باله هذه الحقيقة الاجتماعية للغة .

نأمن من ذلك فيما حكاه عن أبي مهند الإعرابي الذي ((سمع رجلاً من العجم يقول لصاحبه : زود ، فسأل أبو مهند عنها فقيل له : أعط ، فقال أبو مهند : فهلاً قال له : حرهك ، فقيل له : ما كان الله ليجمع لهم إلى العمية العربية)) (³³).

وحال الإعرابي حال من يسمع الآن لغة أجنبية ، فهو يسمع أصواتاً متعقبة (أو ربانة) دون أن يعرف المراد ، وهنا نقابل بعض الحقائق في اللغة البشرية منها : أن هدف النظام اللغوي الأساس هو التقاء بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة ، ذلك التنظيم الذي من شأنه أن يقرّب الجماعة بعضها من بعض وينفي أي احتسار للتعبئة فيما بينها ، من هنا اكتسبت ((اللغات المتواضع عليها أهميتها من علاقتها المتسيرة بالمجتمع وهي علاقة غير طبيعية إذا ما وضعناها في سياق عشرات بل مئات الآلاف من السنين التي استخدمت فيها اللغة)) (³⁴).

(³⁰) الخصائص : ٤٥ / ١ ، ٢٦ .

(³¹) سر الصناعة : ٥٠ / ١ .

(³²) علم اللغة العام (موسوع) ترجمة د. يونس يوسف عزيز ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ٣٦ .

(³³) الخصائص : ٢٨ / ٣ .

(³⁴) علو اللغة الاجتماعي (د. هسن) ترجمة د. محمود عياد ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ٦٣ .

والهدف السالف ذكره متفق فيما عبر عنه ابن جني بـ (الأعراض) وهو الجانب النفسي للغة : بعبارة أخرى : هو المعاني والأفكار التي تستدعيها الرموز الصوتية التي اصطلح عليها من لدن الأفراد في البيئة اللغوية المعنية وتلك حقيقة أخرى ، تكمن في أن الصلة بين الوحدات الصوتية ومعانيها ليست فطرية أو طبيعية ، إنما هي في الغالب صلة مكتسبة ، يقررها العرف ويحققها الاستعمال . ولو كانت الصلة طبيعية بينهما لما غاب عن أبي مهدية معنى كلمة العجمي ، ولما اقترح لها بديلاً مستعملاً في لفته هو لا في لغة العجمي ، ولو صحت هذه الصلة بين الكلمة ومعناها ((لكان حتماً أن يتكلم الناس لغة واحدة)) (٣٥) وذلك ضرب من المحال : لأن الكلمات لا ((تكتسب قيمتها الرمزية إلا في بيئة لغوية محدودة فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة في كل اللغات بل كل منها ذات إحياء محدد في مجتمع لغوي دون غيره)) (٣٦) .

وبرغم أن ابن جني كان يؤمن أن ثمة صلة طبيعية بين الأصوات وما تعبر عنه من أحداث ومعاني ، فإن إيمانه هذا في الغالب إنما قصره على العربية وحدها ، وقد بنى ذلك كله على أساس عقلي وحساسه المخلص الأمين في دراسته لأوضاع اللغة العربية فقرر فيما بعد أن الأصوات فيها قيمها التعبيرية وأنها ذات صلة بمعاني الكلمات التي تشمل عليها الرموز الصوتية التي اصطلح عليها من لدن الأفراد في البيئة اللغوية المعنية ، وتلك حقيقة أخرى ، تكمن في أن الصلة بين الوحدات الصوتية ومعانيها ليست فطرية أو طبيعية ، إنما هي في الغالب صلة مكتسبة ، يقررها العرف ويحققها الاستعمال . ولو كانت الصلة طبيعية بينهما لما غاب عن أبي مهدية معنى كلمة العجمي ، ولما اقترح لها بديلاً مستعملاً في لفته هو لا في لغة العجمي ، ولو صحت هذه الصلة بين الكلمة ومعناها ((لكان حتماً أن يتكلم الناس لغة واحدة)) (٣٧) وذلك ضرب من المحال ، لأن الكلمات لا ((تكتسب قيمتها الرمزية إلا في بيئة لغوية محدودة فليست دلالات هذه الكلمات طبيعية مشتركة في كل اللغات بل كل منها ذات إحياء محدد في مجتمع لغوي بعينه دون غيره)) (٣٨) .

وبرغم أن ابن جني كان يؤمن أن ثمة صلة طبيعية بين الأصوات وما تعبر عنه من أحداث ومعاني ، فإن إيمانه هذا في الغالب إنما قصره على العربية وحدها ، وقد بنى ذلك كله على أساس عقلي وحساسه المخلص الأمين في دراسته لأوضاع اللغة العربية ، فقرر فيما بعد أن الأصوات فيها قيمها التعبيرية وأنها ذات صلة بمعاني الكلمات التي تشمل عليها تلك الأصوات ، قال : ((وأهم أن العرب تقارب بين الألفاظ والمعاني إذا كانت عليها أدلة وبها

(٣٥) أسس علم اللغة (ملوي باي) ترجمة د. مختار عمر ، طرابلس ١٩٧٣ : ص ٤١ .

(٣٦) علم اللغة العربية (د. محمود حجازي) وكالة المطبوعات ، الكويت ، ص ١٥ .

(٣٧) أسس علم اللغة (ملوي باي) ترجمة د. مختار عمر ، طرابلس ١٩٧٣ : ص ٤١ .

(٣٨) علم اللغة العربية (د. محمود حجازي) وكالة المطبوعات ، الكويت ، ص ١٥ .

محيلة ... وتلحق المعصور ، والعمر شدة جماعة ، والتعزيز تضرب ، وذلك شدة لا محالة ، فالشدة جامعة لأشرف الثلاثة)) (٣٨) . وقال : ((انقبض - بالضاد معجمة - باليد كلها ، وبالضاد - غير معجمة - بأطراف الأصابع .. وذلك أن الضاد لنفسها واستطالة مخرجها جعلت عبارة عن الأكثر ، والصاد أصفها والحصار مخرجها وضيق محلها جعلت عبارة عن الأقل)) (٣٩) .

وفي مكان آخر ، قال : ((ومن ذلك .. جر الشيء بحره ، قدموا أنجيم لأنها حرف شديد ، وأول الجر بمثابة على الجار والمجرور جميعاً ، ثم عطفوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر ، كرروها مع ذلك في نفسها ، وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر انقز عليها واضطرب صاعداً عنها ونازلاً عليها ، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التمتع والقلق ، فكانت آراءه إما فيها من التكرير .. أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها)) (٤٠) .

وإذا كانت هذه الظاهرة كثيرة ومستقيمة في العربية كما يرى ابن جني ، فإن الندرس اللغوي الحديث ينخرها ، وإذا ما وجدت فهي قليلة العدد وليست ((دليلاً على بطلان حجة الاعتباطية في الإشارة المخفية)) (٤١) .

ذلك أن الأصوات معتلة في الألفاظ من خلق العقل البشري ، وأن ما تغير عنه مقصود إزله ومصطلح عليه في الاستعمال ، يقول ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) إن ((الأسم الواحد .. تخالف مسمياته لاختلاف اللغات ، وهو بعد وفروع لتواضع يحتاج إلى قصد المتكلم له واستعمال فيما قرره المواضعة)) (٤٢) .

ويبدو ((أن ابن جني كن من العلماء القلائل الذين يذهبون إلى وجود مناسبة بين اللفظ والمعنى ، فقد أشار انتقازاني إلى سذهب بعض العلماء في وجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ والمعنى وقال : وافق الجمهور على أن هذا القول قسند)) (٤٣) .

ومع ذلك ، فتحة رأي آخر لأبن جني - وإن لم يكن ذا بال مع قوله بالمناسبة الطبيعية - يقرر فيه أثر المواضعة في منح الألفاظ قيمها التعبيرية ، يقول : ((فمضى مئت اللفظة من هذا عرف (معناها) ولم جرا فيما

(٣٨) المحاسب ، تحقيق علي النجدي ناصف و د. عبد الفتاح شلي ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٦ / ٧ .

(٣٩) المصدر نفسه : ١٩ / ٢ .

(٤٠) الخصائص : ١٦٥ / ٢ .

(٤١) علم اللغة العام (سومور) سن ٨٨ ، واللغة بين انقومية والعالمية ، ص ٢١ .

(٤٢) مر للفصاحة / تحقيق عبد المتعال السعيد ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٢ .

(٤٣) دراسات اللغوية والنصوتية عند ابن جني ، د. حسام النعيمي ، بغداد ١٩٨٠ ، ص ٢٧٨ .

سوى هذا من الأسماء والأفعال والحروف ، ثم ذلك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : الذي اسمه إنسان فليجعل مكان (مود) والذي اسمه رأس فليجعل مكانه (سر) وعلى هذا بقية الكلام ...)) (٤٥) .

وقد تبين لنا مثل هذا فيما حكاه أبو مهدي الإعرابي الذي حاول أن يجعل (حيهلك) العربية مكان (زود) الفارسية .

وتلك إشارة إلى أن الألفاظ سوقوف عندها من قبل الجماعة اللغوية وأن معانيها نتاج المواضعة لا الطبيعة ، هذه المواضعة تصنع ((اللغة حتما في قائمة الرموز ، مثل عملة النقد الورقية التي ترمز إلى قيمة شرائية معينة ، وتعتمد في قيمتها على العرض والاكتفاء بين أفراد المجتمع ، لا على قيمتها الذاتية)) (٤٦) .

وما دامت اللغة نظاماً من الأصوات ، فإن هذا النظام لا وجود له ما لم يدخل المجال الفعلي للغة ، ذلك المجال هو التخاطب بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة ، ليمارس كل منهم دوره في عملية التوصيل أو التعبير عن أغراضه . والتعبير بالأصوات كما توحى به عبارة ابن جني إنما يقصر عملية الأوصيين على الكلام المحسوس نطقاً وسماعاً ، وهو بذلك الفعل الذي يقتضي متكلاً وسماعاً في حدث اقوي معين ، وفي إطار اجتماعي معين كذلك .

والنور الذي يقوم به المتكلم ، سواء أكان شعورياً أو لا شعورياً ، دور قائم على أنظمة اجتماعية صارمة ، منها النظام اللغوي الذي يفرض أنماطاً ومقاييس تحكم سلوك المتكلم ، تلك الأنظمة والمقاييس هي قواعد اللغة وخصائصها وتقاليد المجتمع وثقافته التي تنظم طرق التعبير في الكلام ويوجهها المتكلم نحو توصيل أغراضه وتحقيق مبدأ الاتصال الاجتماعي .

إذن فاللغة نظام معين في بيئة لغوية معينة على ((المتكلم أن يراعيه ويتمسك به في كلامه لأنه شرط الفهم والإفهام بين الناس ، وإذا أخل المتكلم بهذا النظام حكم السامع على كلامه بالغرابة والشذوذ)) (٤٧) .

فالمتكلم ليس حراً في توصيل أغراضه ، وإن سلوكه قائم على معايير يبنيتها اللغوية ، والساووك اللغوي (التعبير الصوتي) في كل بيئة لغوية يتخذ قوالب وأساليب معينة يدرج عاينها ابتناؤها في الاستعمال لتحقيق الفهم المشترك ، وهي أساليب تشكل خصائص لغوية وقواعد مألوفة أقرها الاستعمال العرفي ، ذلك الاستعمال من شأنه أن يضمن الموضوع المتبادل ، يقول ابن جني متحدداً عن أحد أوضاع العربية : ((إن هذه اللغة لكثرتها جار على

(٤٥) الخصائص ١ / ٤٤ .

(٤٦) أسس علم اللغة : ص ٤٦ .

(٤٧) من أسرار اللغة ، إبراهيم أنيس ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٣٨ .

المجاز .. فلما كانت كذلك وكان القوم الذين خولطوا بها أحرف الناس بسعة مذاهبيهم .. جرى خطابهم مجرى ما بالفنونه ويعتدونه منها ، وفهموا أغراض المُخاطَب لِمِ بها على حسب حرفهم وعاداتهم في استعمالها وذلك فهم يقولون : هذا الأمر يصغر في جنب هذا ، أي بالإضافة إليه .. ((⁴⁸) .

هذا الاستعمال العرفي أو الخطاب الذي أصبح في حكم المعتاد يضاف على اللغة نظماها المتميز ، كما يشعر الجماعة اللغوية بالانتساب بعضها إلى بعض ، وفي هذا المبدأ يقول عزربو باي : ((إذا كنت تتكلم لغتي فأنت تنتمي إلى جماعة أخرى غير جماعتي ونحن نتصرف على هذا الأساس)) (⁴⁹) .

والنتصرف هنا هو استعمال الجماعة لنظامها اللغوي بما يحقق الاتصال الذي يقتضي التفاهم المشترك ، وهو نظام يجعل أفراد الجماعة يتحدثون لأنفسهم نوعا من القياس : فتصبح اللغة كما اصطلاح ابن جني ((لغة الكافة)) (⁵⁰) ، تلك اللغة التي تقتضي الصحة ، ويكون القياس في ضوء تلك الصحة أو الموضوع .

فالتميز بالأصوات هو الاستعمال العرفي الذي يؤديه الفرد في بيئته اللغوية ، وهو لا يشير إلى وظيفة اللغة كما يتبادر إلى الذهن : بقدر ما يمكن دور الجماعة في إعفاء خصائص متميزة ومقبولة على بناء نظامها اللغوي ، هذه الخصائص تشكل في جماعها أوضاع اللغة وأحكامها التي يراعها المتكلم في المواقف الخطابية المختلفة .

في ذلك وحده نعدو اللغة مؤسسة جماعية يمارس فيها الأفراد أنوارهم في ضوء تعليمات وقوانين هذه المؤسسة التي تفرض استقامة السلوك الكلامي والتاريخي فهم هؤلاء الأفراد مقاصد كل منهم . والقصد إنما يتحرك في المقام الأول على التعرف الاصطلاحي بين أفراد الجماعة اللغوية ، لأن التعرف هو الذي يكسب الكلمات والجميل قبيلها الرمزية التي يحددها الواقع الاستعمالي للغة . ولذا جاءت عبارة ابن جني (يُعَبَّرُ بها كل قوم) لتأكيد عرفية اللغة كمن جانب ، وتبيان دور المجتمع في صياغة نظامه اللغوي العام وأثر هذه الصياغة المصطلح عليها في تنفيذ مبادئ هذا النظام من قبل الفرد بين جماعته التي ينسب إليها .

فالمجتمع هو الذي يؤسس لأعضائه ما يُسمى باللغة المشتركة التي ((نلّم شقاتهم ونجمع ما قد تبعد من وحدتهم ونسجامهم ، وإذا لم تكن لقوم من الأقوام تلك اللغة المشتركة فلا قومية بينهم إلا في حدود الأسرة أو

(⁴⁸) الخصائص : ٢ / ٢٤٦ .

(⁴⁹) أسس علم اللغة ، ص ٣٧ .

(⁵⁰) الخصائص : ١ / ١٦ .

القرية))^(٥١) وفي هذا يتضح أن المجتمع أو القوم شرط أساسي أوجود اللغة فلا مجتمع مهما كان حظه من الحضارة دون لغة وليس ((هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل معه))^(٥٢) .

وبعد هذا العرض الذي أبرزنا فيه أبعاد مفهوم ابن جني للغة لنا أن نتعامل :

ما الذي نقف عليه بعد ذلك ؟..

لعل أول ما ولفت الانتباه في ذلك هو : أن ابن جني قصر اللغة على طبيعتها الصوتية ، وهو بذلك يبعد الطبيعة الصورية لها عن الدرس اللغوي ، وهو محق في ذلك ، فعالم اللغة إنما يهمه ملاحظة الأصوات ، واللغات كما هو معروف تبعد الكثيرة مكتفية بالصوت المطروق ، ولعل ذلك ((يفسر لنا المنهج الغربي في جمع اللغة واستقرؤها عن طريق الرواية والمشاهدة وفي حديثهم عن السماع ومذهب علم القراءات في التلقي والعرض))^(٥٣) .
وقديما كان سيبويه يبين جيد الأصوات ورديتها عن طريق المشاهدة والسماع^(٥٤) . على أن الأصوات في الواقع تشير إلى الاستعمال العرفي ما نامت ذات صلة بالتعبير ، فالقول أن اللغة أصوات إنما ينصرف إلى عملية الكلام المسموع إلى اللغة في مفهومها العام ، وابن جني قد قرر ذلك في أكثر من موضع ، فهو يرى أن تصريف كلمة (اللغة) من لغوت أي تكلمت^(٥٥) ، وقصر كلمة (لغة) في الحديث الذي أورده بـ (تكلم)^(٥٦) أي نطق بما لا يلبي ، والكلام عنده لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة ، وهو يرى مذهب الأخفش الأوسط في أن المتكلم لا يكون متكلماً حتى يحرك بالكلام آلات لطقه^(٥٧) وكل ذلك يتفق مع ما سلف ذكره من قول الجاحظ في أن تحقق عملية الكلام مرتبط بظهور الصوت وقد تقررت ماهية الكلام ، فيما بعد ، على بن ابن سنان الخفاجي حين عنده أصواتاً مقطعة على وجه مخصوص وأن إعادته تكمن في المواضعة^(٥٨) .

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك أن عبارة (اللغة أصوات) عند ابن جني لا تقف عند المستوى القياسي أو الأدبي للغة ، بل أنها تصدق على جميع مستوياتها وفي ثلثي المواقف .

(٥١) اللغة القومية والعالمية ، ص ١٠٢ .

(٥٢) علم اللغة العربية ، ص ١٢ .

(٥٣) لغة اللغة في الكتب العربية ، ص ١٣ .

(٥٤) أنظر الكتاب : ٤ / ٤٢٢ .

(٥٥) الخصائص : ١ / ٣٣ .

(٥٦) ن . م : ١ / ١٨ .

(٥٧) المصدر نفسه : ١ / ٤٥٥ .

(٥٨) من الفصل ، ص ٢٤ .

والأمر الآخر الذي نستشفه في مفهوم اللغة عند ابن جني ، هو اجتماعية اللغة ، هذه السمة الاجتماعية هي المصدر الوحيد الذي ينبع منه النظام اللغوي ، وفي ضوء هذا المصدر تتحدد أنظمة اللغة الفرعية ، بل أن هذا المصدر هو الذي يشرح سر حيويتها وديمومتها ، ويعكس المبادئ النطقية لأفراد اللغة المعينة ، فالعرب يجمعون بين ساكنين في نطقهم ، والعجم يجمعون بين ثلاثة ساكنين وذلك قولهم : أولاً الدقيق ومماثلت للين^(٥٩) . مما يعني ذلك أن المجتمع هو الذي يقرر أوضاع لغته عن طريق الاستعمال التواضعي ، وبهذا وحده تصبح اللغة ((عبارة عما يتواضع القوم عليه من الكلام))^(٦٠) لا مجرد أصوات فصص . وهنا تستحق اللغة السمة التي أطلقها ابن جني بـ (لغة الكفاة) التي تشير إلى أوضاع اللغة المتواضع عليها في الكلام لتضمن الفهم المشترك بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة على مرور الأيام والذهور .

المصادر

١. القرآن الكريم
٢. في فقه اللغة في الكتب العربية د. عبد الرأجي ودرامات في فقه اللغة لصبيحي الصالح وانظر الدراسات النهمية والصوتية عند ابن جني للدكتور حسام النجمي وغيرها ..
٣. فقه اللغة في الكتب العربية ، دار الفهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٩٠ .
٤. الخصائص : تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب : القاهرة ١٩٥٢ / ١ / ٣٢ . والاحناء : أطراف الشيء ونواحيه .
٥. الكتاب : (ط ، هارون) الخالجي ١٩٨٢
٦. بحوث ومقالات في اللغة : د. رمضان عبد التواب ، الخالجي ١٩٨٨ .
٧. خواطر هيكلية في كتاب سيبويه ، غزو تسفد ، الحولية القوسية ١٩٨٠ / ١٨ .
٨. الإيضاح في حال النحو : للرجلي ، تحقيق د. مازن المبارك ، بيروت ط٢ - ١٩٧٣ .
٩. البيان والقيين : الجاحظ ، (محمد هارون) الخالجي ١٩٧٥ / ١ / ١١ .

(٥٩) الخصائص : ١ / ٨٩ .

(٦٠) من الفصاحة ، ص ٢٩ .

